طبيعة النفس العربية

بين المزاج العقلي السامي والمزاج الآرى

للاستاذ صادق برسوم مطر

ليسانسيه فى الفلسفة

« ا » مقدمة : ظهور فكرة مقارنة خصائص النفس السامية بخصائص النفس الآرية بين مستشرقى القرن التاسع عشر — من هم الساميون والآريون ؟

« ب » رأى ارنست رينان : الدور الذى لعبه الساميون فى التاريخ هو دور دينى اكثر منه سياسى أو علمى — التوحيد هو أهم خصائص الساميين وهو يفسر كل صفاتهم .

— ١ —

فى القرن التاسع عشر اتجهت الى الشرق أنظار الكثيرين من أصحاب العلم فى أوربا فأقبلوا على البحث فى تاريخه ، وتوفروا على درس ماتمخضت عنه مدنياته من دين وفلسفة ، وعلم وفن ، ولغة وأدب ، فنشطت الدراسات الشرقية فى هذا القرن ، وأصاب الدراسات العربية والاسلامية من ذلك خير كثير .

وكان كثير من المستشرقين المشتغلين بشؤون الشرق العربى يعتقدون أن مابين أيديهم من الفلسفة والفن واللغة والآداب العربية ، هو من آثار العقل العربى ، أو على الأقل للعقل العربى أثر فيه ، لذلك تعرضوا للبحث فى طبيعة العقل العربى والنفس العربية ، وللبحث فى طبيعة العقل العربى لجأوا الى المقارنة بين الجنس السامى الذى يعتبر العرب أعظم ممثليه ، وبين الجنس الآرى الذى يمثله الهنود والأوربيون ، وكان من وجوه هذه المقارنة ، مقارنة المزاج العقلى السامى بالمزاج العقلى الآرى .

وقد ظهرت مسألة السامية والآرية أول الأمر ، بين العلماء الباحثين فى أصل اللغات ومقارنتها ؛ فهؤلاء وإن اختلفوا فيما بينهم اختلافات جزئية ، الا أنهم كانوا متفقين على وجود مجموعة لغات تسمى بالمجموعة السامية ، ومجموعة أخرى تسمى بالمجموعة الآرية ثم نشأت بعد ذلك عند بعضهم فكرة أن هاتين المجموعتين من اللغات تقابلهما مجموعتان من الأجناس البشرية ، هما مجموعة الشعوب السامية ومجموعة الشعوب الآرية ، وأن

لكل من هذين الجنسين خصائصه ونفسيته ومزاجه العقلى الخاص .

وهم فى هذه المقابلة لا يقصدون بالساميين الشعوب التى ورد ذكرها فى التوراة على أنها من أبناء سام بن نوح ، بل يقصدون الشعوب التى تكلمت العربى والسريانى والعبرى وبعض اللهجات القريبة من هذه . أما الآريون فأصل نشأتهم عند هضبة «بامير» فى آسيا ثم انتشروا فى الهند وفارس وأرمنيا وآسيا الصغرى وأوربا وهذا هو مايسمى بالرحلة الآرية .

وسأعرض ملخصاً لآراء العلماء الذين تكلموا فى مقارنة المزاج السامى بالمزاج الآرى وسأبدأ برأى « ارنست رينان» المؤرخ واللغوى والفيلسوف والاديب الفرنسى المشهور (١٨٢٣ — ١٨٩٢) .

يقول « ارنست رينان » فى الفصل الأول من كتابه المشهور فى تاريخ اللغات السامية : إن مجموعة اللغات السامية يجب أن ينظر اليها الآن باعتبار أنها تنطبق على قسم من أقسام الجنس الانسانى ، والحقيقة أن التاريخ يبين لنا أن الشعوب التى تكلمت هذه اللغات لها طابع خاص وتتسم بسمات خاصة . والتاريخ القديم يظهر لنا أنهم قد لعبوا دوراً هاماً فى الغزوات الكبرى التى حدثت فى آسيا ، ولكن تأثيرهم من الوجهة السياسية أقل بكثير من تأثيرهم من الوجهة الدينية لأن حضارة بابل بكثير من خصائصها الجوهرية لا ترجع الى أقوام من هذا الجنس : وقبل الامبراطورية العربية التى كان السبب فى وجودها دافع حماسى قوى من الدين الجديد ، قبل هذه الامبراطورية لا نكاد نرى فى التاريخ آثاراً لأية أمبراطورية سامية كبرى ، ولكن تقصيرهم فى هذه الناحية قد عوضوه فى الناحية الأدبية ويمكننا أن ننسب اليهم بدون أية مبالغة ، جزءاً من الآثار العقلية للجنس الانسانى .

والواقع أن اللفظين اللذين استعملا ولا يزال استعمالها جارياً الى الآن ، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة ، وهما علم وفلسفة ، قد كانا غريبين عنهما تقريباً . فالبحث التفكيرى المستقل الدقيق العميق ، أو بعبارة أخرى التفكير الفلسفى للبحث عن الحقيقة ، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندى الأوربى (الآرى) الذى يمتد من الهند الى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذى كان يبحث منذ أقدم العصور الى الان ، لتفسير الله والانسان والعالم تفسيراً عقلياً ، والذى ترك وراءه فى كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية

خاضعة لنواميس تطور منطقى ، أما الساميون فانهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا الى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ .

فالمدرسه الفلسفية (L'école philosophique) موطنها اليونان والهند ، فى وسط قوم طلعة ، يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشياء . أما المزامير والأناشيد والكتب المنزلة والحكم الرمزية أو الموضوعة فى شكل ألغاز فهى من نصيب الجنس السامى .

وفى الواقع ألسنا نلاحظ أن الديانات الثلاث التى كان لها فى تاريخ المدينة أعظم الأثر ، والتى ترتبط بعضها ارتباطاً شديداً لدرجة أنها تبدو كثلاث غصون لجذع واحد ، أو كثلاث طرق فى التعبير عن فكرة واحدة — ألسنا نلاحظ أن هذه الديانات الثلاث قد نشأت بين أقوام من الساميين ؟

ثم ينتقل « رينان » الى القول بأن الجنس السامى هو أدنى من الجنس الآرى اذا قورن به ، فهو — أى الجنس السامى — ليست له هذه الروحانية السامية التى عرفها الهنود والألمان فقط ، وليس له هذا الاحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التى هى الصفة الغالبة عند الكلتيين (سكان فرنسا وجزء من البلجيك) — وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم : ففخر الساميين هو فى كونهم أول من عرف مبدأ الالوهية وعنهم أخذ العالم الديانات . والصحراء هى ملهمة الوحدانية ومبعث التوحيد لمنظرها الواحد المتشابه ، الذى يلهم الانسان أيضاً فكرة اللانهائى . وهذا هو السبب فى أن بلاد العرب كانت دائماً الطريق الوحدانية المتطرفة وإذن فمن الخطأ القول بأن محمداً هو موجد التوحيد عند العرب فعبادة الله كانت دائماً قوام الدين عندهم ، والاصلاح الدينى عند الساميين كان دائماً عبارة عن الرجوع الى دين ابراهيم . وإذن فالعبادة السامية الحقة لم تتعد مطلقاً دين ابراهيم البسيط وهو دين خالى من التعقيد ، وليس له لاهوت دقيق معقد . وحركة الوهابيين فى بلاد العرب هى تجديد لفكرة العرب القديمة ، وهى تكاد توجد إسلاماً جديداً بعملها على تبسيطه ، وتخليص العقيدة من كل العناصر الغريبة التى دخلت فيها وأبعدتها عن سذاجتها الأولى .

وميل الساميين الى التوحيد والبساطة يظهر لنا السبب فى أنهم لم يكونوا من أصحاب الميثولوجيا مثل الآريين .

طبيعة النفس العربية

ومن آثار التوحيد عند الساميين ، التعصب . فعدم وجود التسامح الدينى عند الساميين هو نتيجة ضرورية لمذهبهم فى التوحيد . أما الآريون ، فانهم قبل اهتدائهم لأفكار الساميين ، لم يعتبروا أديانهم فى أى وقت من الأوقات كحقائق مطلقة ، بل كنوع من الميراث فى العائلة أو القبيلة ، وهذا هو السبب فى أننا نجد عندهم دون الآخرين التسامح وحرية الفكر وروح الاختبار والبحث الشخصى . ومسألة النبوات والوحى هى من المسائل التى تخص الساميين ، حتى أن القرآن لم يجد تقسيما للشعوب غير تقسيمهم الى كتابيين وغير كتابيين .

والساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو الى التساؤل والتفكير ، والتى تدفع الى البحث عن الحقيقة ، لأن اعتقادهم فى قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشىء ، فاذا رأوا شيئاً عجيباً قالوا « ربنا قادر على كل شىء » كما أنهم فى حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم « الله أعلم » فاذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب فى عصر العباسيين ، فيجب أن يكون الجواب على ذلك أنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمى فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية ، مع أنه لم يظهر لها أى مبادئ أومقدمات فى شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية وهذا هو كل ما فى الأمر ، كما أنها لم تزدهر إلا فى الجهات البعيدة عن بلاد العرب مثل اسبانيا ، ومراكش وسمرقند ، وكان معظم القائمين بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس .

والتوحيد له تأثير أيضاً فى الشعر العربى ، لان الشعر العربى يعوزه الاختلاف والتنوع فى موضوعات الشعر أى أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين . والواقع أن هذا الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازى عند اليهود والشعر الشخصى الغنائى الذى تمثله القصيدة عند العرب . وهذه أنواع من الشعر القصير يعبر عن احساس شخصى وعن حالة نفسية خاصة ، والابطال فى هذا الشعر هم نفس منشئيه . وهذه الصفة الشخصية الى الغاية التى تجدها فى الشعر العربى واليهودى ترجع الى خاصية أخرى من خصائص النفس

السامية وهى انعدام المخيلة الخالقة عندهم وتبعاً لذلك عدم القدرة على الاختراع . فالشاعر السامى لا يقدم على تناول موضوع غير شخصه ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلى .

والساميون ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامى البحت لم يعرف مطلقاً الا نوعاً واحداً من القصاص هو الموت . والتشابه الممل فى التاريخ الاسلامى قد استرعى أنظار المشتغلين بشؤون الشرق .

وملكة الضحك معدومة عند الساميين ، حتى أن الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر اليهم عرب الجزائر باستغراب ، ويعتبرون ذلك منهم موضع دهشة بالغة .

والساميون أيضاً عندهم نقص تام فى كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير ، وقد حال دون وجودها عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين . والموسيقى وهى الفن الشخصى الى الغاية هى الفن الوحيد الذى عرفه الساميون .

وصفة البساطة تميز الجنس السامى من الوجهة المدنية والسياسية أيضاً ، فهذا الجنس لم يعرف المدنية مطلقاً بالمعنى الذى نفهمه من هذا اللفظ ، والمجتمع السامى الحقيقى هو مجتمع الخيمة والقبيلة ، فليس عندهم نظم سياسية أو قضائية ، ومسائل الارستقراطية والديمقراطيه ونظام الاقطاعات التى تتضمن كل أسرار تاريخ الاريين . لا معنى لها عند الساميين : أما من جهة السلطة المطلقة . فان الساميين لاينسبونها ولا يسلمون بها الا لله . واليهود لم يصلوا الى حكم مطلق ومدنية مستقرة الا فى عصر متأخر . وكانوا فى ذلك مقلدين لغيرهم لا مبتدعين ، والساميون أدنى من غيرهم فى شؤون الحرب والقتال ، لأنه يعوزهم النظام والخضوع للرؤساء ، وهما صفتان لازمتان لتكوين الجيوش . ولتعويض هذا النقص كانوا كثيراً مايلجأون الى استخدام الجنود المرتزقة . هكذا صنع داود والفينيقيون والقرطاجنيون والخلفاء الاسلاميون . وقد كان هذا هو الجرح المميت لكل الحكومات السامية . وضعف الخلافة العباسية ثم زوالها لم يكن له سبب غير هذا .

والاخلاق نفسها ينظر اليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا اليها . فالسامى لا يعرف مطلقاً

[البقية فى الصفحة ٥٨٦]